

## أثر العقيدة في تراجع التعبير الفني في صدر الإسلام بكيري عبد الله جامعة الجزائر 2

الملخص :

يعالج المقال مسألة هامة في تاريخ الإبداع الفني بمختلف أشكاله وتعبيراته، في مرحلة من أهم مراحل التأسيس للحضارة الإسلامية، وهي مرحلة صدر الإسلام التي شهدت ما يشبه التوقف أو الفتور في الإبداع الفني، هذا الركود أو التراجع جعل الكثير من الفقهاء والدارسين يصرون من خلاله حكما نهائيا بتعارض الفن مع العقيدة الجديدة، ولعل هذا المقال يحاول أن يرد على هاته الفكرة الشائعة مبينا الأسباب الموضوعية لتأثير العقيدة على تراجع أشكال التعبير الفني في هاته الفترة من تاريخ الحضارة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الفن، صدر الإسلام، العقيدة

الملخص باللغة الانجليزية:

The article addresses an important issue in the history of artistic creativity in its various forms and expressions, at one of the most important stages of the founding of Islamic civilization, which is the stage of the issuance of Islam, which witnessed the kind of interruption or decline in artistic creativity, this stagnation or regression made many jurists and scholars issue a final judgment on the conflict of art with the new doctrine, and perhaps this article tries to respond to this common idea of the objective reasons for the impact of the doctrine on the decline of artistic expressions in this period of the history of Islamic civilization.

Key words: Art, Islam Issued, Creed

مقدمة:

صدر الإسلام يمثل الفترة التي تلت الجاهلية و تبدأ ببعثة النبي صلى الله عليه و سلم و تمتد إلى عهد الخلفاء الراشدين، و تنتهي هذه الفترة بظهور الدولة الأموية سنة 41هـ، و هذا العصر يعتبر من أعظم العصور في التاريخ الإسلامي، حيث قلب الإسلام العقلية العربية و شن حربا على الحياة الجاهلية، و رسم للمجتمع صورة جديدة، تشكل ملامحها قيم روحة و اجتماعية تخالف ما كان معروفا و مألوفاً لدى العرب في جاهليتهم.

وصورة الإسلام في هذا العصر تمثل الصورة الأصيلة لأن الرسول صلى الله عليه و سلم قد عاش هذه الفترة و من بعده خلفائه قد كانوا نشأوا على يديه، فقد كانت تعبر عن أكمل صورة مارسها العرب للدين الإسلامي، وهذا ما جعل الكثيرين بل غالبية المجتمعات الإسلامية فيما بعد تنظر لهاته الفترة نظرة تقديسية، فقد كانت النموذج المثالي الذي يجب محاكاته و السير على نهجه.

و لأن صدر الإسلام قد طبع بعقلية أهله فلم يكن يهتم بالفنون على اختلافها إلا قليلا منها، و نظرا لاختفاء الكثير من أنواع الفنون في صدر الإسلام فإن هذا جعل الكثير من الفقهاء يعتقدون بجرمة الأشياء التي لم تكن موجودة في تلك المرحلة و منها الفنون، فقد حرّموا الكثير منها غير منتبهين إلى علة التحريم، فالنحت والرسم والموسيقى والكثير من أغراض الشعر لم تكن موجودة في تلك الفترة، و لذلك اعتقدوا بتحريمها،

وجمعوا الحجج على ذلك، ولكنها في أغلبها لم تكن تعبر عن التحريم صراحة، بل تأولوا النصوص، دون مراعاة الجانب الآخر من النصوص التي تقيد الإباحة، أو أن ينتبهوا إلى علة التحريم.

لكن في المقابل نجد الكثير من المفكرين ورجال الدين خاصة المعاصرين قد ناقشوا القضية بموضوعية، و انتهوا إلى أن ما لا يضر بالإسلام فهو ليس حرام ولم تنته عنه الشريعة، بل الإسلام شجع على إنماء الحس الجمالي للمسلم، و هنا يظهر نوع من التوتر إذا : لماذا اختفى هذا النوع من الفنون في صدر الإسلام إذا لم يكن محرما و نهيا عنه ؟ وكيف أثرت العقيدة الجديدة في تراجع التعبير الفني في صدر الإسلام؟

سنحاول هنا الإجابة عن هاته الإشكالية من خلال إبراز و توضيح الأسباب الحقيقية التي جعلت المسلمين في صدر الإسلام يعرضون عن مختلف التعبيرات الفنية، وعلى إثرها اختفت الكثير من الفنون.

### 1. موقف الاسلام من الفن الشائع (تعارض بعض الفنون الجاهلية مع العقيدة):

إن كثيرا من فنون الجاهلية كانت تتعارض مع العقيدة الجديدة، فن النحت والتصوير مثلا كان قائما في خدمة العقيدة الوثنية، و القائمة على مبادئ مخالفة تماما لما جاء به الإسلام فلو أبقى مثل هذا الفن فإنه لا محالة سيعكر صفو العقيدة الإسلامية، فالأصنام رمز للوثنية، و ما دامت دعوة الإسلام جديدة على العرب فإنه من الصعب أن يرسخ في قلوب العرب ببقاء تلك الأصنام، و التي كانت تذكرهم بما مضى من عبادة الأوثان، وبالتالي فتوقف بعض الفنون في صدر الإسلام راجع إلى "مخافة رجال الشرع من أن ينتكس المسلمون إلى عبادة الأوثان، فجاء هذا المنع حتى لا ترتبط شواهد هذا الفن من تماثيل بشرية أو حيوانية بذكريات العرب في الجاهلية، عن أصنامهم، و كأن رجال الشرع يريدون أن يقطعوا الصلة تماما بين هذا الماضي الوثني و الحاضر الإسلامي" (1).

و إضافة إلى هذا فإن تلك التماثيل و المنحوتات و الصور المجسمة التي كانت موجودة لدى العرب كانت تعبر عن آلهة بعيدة، فالعرب تأثروا بالرومان و المسيحيين و حاولوا تجسيد آلهتهم مما أوقعهم في الوثنية و رغم أن هناك من العرب من يعبدهم ليس على اعتبارهم آلهة و إنما على اعتبارهم واسطة كما جاء في القرآن الكريم : "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" (2) إلا أن معظم العرب كانوا ينظرون إليهم على أنهم آلهة يمكن أن تتفهم و تضرهم، و الإسلام جاء لينزع تلك الواسطة بين العبد و الرب و تصبح العلاقة بين العبد و الرب علاقة مباشرة، و من ينظر للأصنام على أنها واسطة فإنه يقع في الشرك و هو أعظم أمر نهى عنه الله عز و جل، و لما في تلك المنحوتات من تجسيد لله و نزول به إلى مرتبة الإنسان و تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، لأنه إله مجرد مختلف عما سبق من آلهة العرب و لهذا نرى الفن العربي يسير في طريق التجريد فيم بعد. (3)

و إذا كان هذا حال النحت و التصوير فحال الشعر لا يختلف كثيرا، فروح الدين الجديد الذي ينهى عن التعظيم بالآباء و يحرم الخمر و ينفرد من التعرض لأعراض الناس كان سببا في ضعف الشعر العربي وضعف الدوافع إليه، فماذا يقول الشعراء في مدائحهم و قد صار بلال و ابن مسعود و أبو هريرة وغيرهم من المغومرين أكرم من صناديد قريش و قادة العرب، ثم في أي شيء يخوض الشعراء و قد حرمت أهم

الموضوعات التي تثير الشعور و تعين عليه من شرب و غزل و هجاء و نحوه. (4)، كما أن الآية الكريمة قد حددت موقفها من جميع أغراض الشعر في العصر الجاهلي في قوله تعالى:

"والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون و أنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و ذكروا الله كثيرا و انتصروا من بعد ما ظلموا و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون". (5)، وقد التزم الصحابة بتلك الآية الكريمة حرفياً، فأقسم لبيد الله أن لا يقول شعراً، وقصر الشعراء الباقيون مواهبهم على خدمة الدعوة الإسلامية برد هجمات قريش، وغيرها من المشركين، حتى إذا وضعت الحرب الأدبية بين قريش والرسول أوزارها، لاذوا بالصمت.

## 2. التأثير النفسي للعقيدة:

### 1.2. الانبهار بالعقيدة الجديدة ( القرآن ) :

يرى الدكتور محمد قطب في كتابه " منهج الفن الإسلامي " أن من أسباب انقطاع التعبير الفني في تلك الفترة أن الأغراض " التقليدية " التي كان يقال فيها الشعر - فن العرب الأول - قد تغيرت من أساسها بفعل العقيدة الجديدة، فصارت تلك الأغراض نشازاً فنياً وشعورياً لا يصلح للقول فيه، فالفخر والمديح والهجاء ، والتغني بالدمن والآثار، وذكر المناقب " القبليّة " والحروب والغارات والثارات.. كلها متعلقة بمشاعر الماضي الذي انسلخت منه النفوس المؤمنة، وبتصورات هذا الماضي وعلاقاته التي نبذتها هذه النفوس... ومن ثم لم تعد صالحة للقول بينما الأغراض الجديدة التي يمكن أن يقال فيها لم تتبلور بعد بلورة فنية. وهذه خطوة أبعد من السابقة، فليست المسألة أن المشاعر المذخورة التي تدفع إلى التعبير الفني لم تكن قد تجمعت بعد، بل المسألة كذلك أن أغراض التعبير وطرائقه لم تكن قد تبلورت بعد لتساوق المعاني الجديدة والآفاق الجديدة. وكل غرض فني، وكل طريقة أداء جديدة، تحتاج إلى فترة من "الحضانة" قبل أن تظهر في صورة إنتاج فني، وقد كانت المعاني الجديدة والآفاق الجديدة، التي كانت كمينية بأن تعدل أغراض التعبير وطرائقه، شديدة الضخامة بالنسبة للعالم النفسي والبيئي المحصور الذي كان يعيش فيه الشاعر العربي في ظل القبيلة الجاهلية، وكانت في حاجة إلى حضانة فنية عميقة واعية قبل أن تثبت في ثوبها الجديد. (6)

ويضيف الدكتور محمد قطب أيضاً أن من تلك الأسباب أيضاً وقع القرآن في نفوس العرب، فقد تلقوه مأخوذين مبهورين، حتى الذين لم يسلموا منهم و يتجلى ذلك في حديث الوليد بن المغيرة الذي لم يسلم حيث قال: "فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ؛ ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة. وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى". ، كما يتجلى في كلام عمر حين أسلم: "فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيته، ودخلني الإسلام " .

هذا الانبهار الذي تلقى به العرب القرآن، حتى قبل أن يسلموا، يمكن أن يكون سبباً من أسباب توقّفهم فترة عن التعبير الفني، فقد كانت شحنته الفنية العجيبة تملأ نفوسهم ملئاً، وتعمقها من جميع أقطارها، فتستوعب منهم كل طاقة الفن، وتغنيمهم - مؤقتاً - عن جمال الأداء بجمال التلقي والانفعال. (7)

وإلى هذا الرأي يذهب ابن خلدون حيث يفسر اضمحلال الشعر في صدر الإسلام إلى الإنبهار من أسلوب القرآن ، فهو يقول: " اعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم، وكان رؤساء العرب

منافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمناً...<sup>(8)</sup>

## 2.2. الإتران النفسي :

إن بناء العقيدة الجديدة في داخل النفوس وفي واقع المجتمع، ومجاهدة القوى المحتشدة في طريق هذا البناء، سواء في واقع الحياة أو في داخل الضمير، كانا يستتفدان جهداً نفسياً ضخماً بل يستتفدان الطاقة الحيوية كلها، ولا يدعان فيها فضلة تُذخر للتعبير الفني.

وإذا لاحظنا المراحل الثلاث التي يمر خلالها الإنتاج الفني، ولا يتم إلا بها، وهي الانفعال النفسي بالتجربة الجديدة؛ ثم استبطان هذا الانفعال في داخل النفس، حتى يمتزج بأعماقها ويعطيها من لونه ويأخذ من ألوانها، ثم ارتداد التجربة إلى الخارج في صورة " إفران " أو " تعبير " .. إذا لاحظنا هذه المراحل الثلاث، ولاحظنا أن التعبير الفني يعتمد دائماً على ذخيرة نفسية وشعورية مختزنة في باطن النفس، تسعى إلى التعبير عن ذاتها في صورة موحية، لأن فيها شحنة مذخورة تريد الانطلاق.. أدركنا أن فترة البناء للعقيدة الجديدة لم تكن مناسبة لهذا اللون من التعبير.<sup>(9)</sup>

ويضيف محمد قطب متابعا بحثه عن أسباب التوقف التعبيري في الأيام الأولى من صدر الإسلام، حيث يوضح أن التعبير الفني يعتمد على أزمة في النفس، يعانيتها الشاعر أو الفنان، فيسعى إلى التعبير عنها كما يرى، وقد جاءت العقيدة الجديدة بحلولها الصحيحة لكل ما كان يواجه ذلك العربي من أزمات نفسية في حياته، وتفكيره، وتصوره للحياة وللكون، وما بعدهما، وبهذا فقد تفاعل مع الكون، والحياة بانسجام تام ولم يعد يعاني من الأزمات التي كانت تدفعه للقول والتعبير.

لقد كانت العقيدة الجديدة في الواقع تنشئ النفوس إنشَاء من جديد، كانت "تغسل" النفوس من أدرانها الجاهلية، ومن موروثاتها القديمة كلها، ومن مفاهيمها المنحرفة، ومن تصوراتها الخاطئة، وتملاً الفراغ الحادث أولاً بأول، بتصورات جديدة ومفاهيم جديدة ومشاعر جديدة، وسلوك وعمل جديدين، ومن ثم لم يكن الرصيد القديم صالحاً للإحياء الفني، فقد كان " غير موجود " في النفوس التي استجابت للدعوة الجديدة فنفضت عن نفسها كل تراث قديم، وانسلخت من كل ما يربطها بماضيها الجاهلي من مشاعر وأعمال ووشائج قربي، وصارت تحس نحوه بنفرة وتقزز، ولم يكن الرصيد الجديد قد تجمع بعد في الصورة التي تصلح للأداء الفني، الذي يعبر عن شحنة مذخورة تريد الانطلاق، لا عن الشحنة في دور التكوين، قبل أن تمتلئ بها النفس ثم تفيض بالتعبير.<sup>(10)</sup>

## 3. الدور التاريخي للعقيدة الإسلامية:

### 1.3 - الإسلام و تأسيس الدولة:

الإسلام مكون للدولة الإسلامية على عكس الديانات الأخرى التي ظهرت داخل دول فالمسيحية مثلا ظهرت داخل الدولة الرومانية حيث أنها وجدت نظاما سياسيا قائما و له مرتكزاته الإجتماعية والإقتصادية والثقافية ما سمح بالإتجاه نحو الفن و الإهتمام بالإنتاج الفني.

وهذا على عكس الحضارة الإسلامية فالمسلمون كانوا في صدر الإسلام في مرحلة إرساء قواعد الدولة الجديدة ووضع أسسها الحضارية والأساس لا يرى وإنما يرى من البناء ما ارتفع، ولهذا يرى الدكتور سعيد حسن منصور «بأنه من البديهي لن ينتهي عصر من العصور الأدبية في وقت محدد، ويبدأ عصر ثان في وقت آخر معلوم على نحو ما تقوم الدولة في التاريخ السياسي بين يوم وليلة، ويحدث الانقلاب في نظام الحكم بين لحظة وأخرى» (11).

وفي هذا الإطار يرى الاستاذ يحيى الجبوري: «أن عصور الانتقال عادة لا تسمح بإبراز ظواهر جديدة في الفن إلا بعد فترة تستقر فيها النفوس وتفتح الأذهان على متطلبات العهد الجديد.» (12)، ويلاحظ الدكتور محمد مصطفى هدارة بعد بحث مفصل، حيث يؤكد: «أن طريقة التجديد في الشعر العربي قد بدأت تتبلور في العصر الأموي وتأخذ شكلا جديا قرب نهاية القرن الأول الهجري، وذلك بتأثير العوامل المختلفة في شكل حياة المجتمع الإسلامي تأثيرا خطيرا»، والدكتور هدارة يرى: أن عصر صدر الإسلام كان خاليا من التجديد، لأنه يرغب إلى الميل لأن يجعل ذلك التجديد والتطور في الشعر في العصر الأموي. ومن الواضح: لم تكن هذه إلا ثمرة لبذور الحياة الجديدة التي نبتت في القرن الأول الهجري، الذي كان عصر حضارة واستعداد للتطور الشامل الهائل الذي حدث في حياة المجتمع الإسلامي وآدابه في القرن الثاني (13).

لذلك ففي هذه المرحلة كان الإهتمام موجها بالأساس إلى تأسيس دولة أو نظام سياسي جديد بدلا عن النظام القبلي القديم لذلك لم يكن هناك اهتمام بالفن فكان الفن جنينا في رحم الأمة الإسلامية لم يعرف وجوده في ظل هذا الفهم الحضاري الجديد إلا بعد التأسيس للتصور الإسلامي للدولة وإقامتها، كل هذا يفسر ركود الفن و توقفه في هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي و هي مرحلة صدر الإسلام.

### 2.3. الفتوحات الإسلامية :

لقد كانت الدعوة الإسلامية عالمية و كان الدين الإسلامي خاتم الأديان السماوية و هذا يقتضي أن يحوي كل اهتمام البشرية و أن يتأثر و يؤثر في الحضارات المجاورة و المعاصرة وهذا يستلزم وقتا للدراسة والمقارنة بثقافات الشعوب المجاورة لذلك كان انشغال المسلمين بالفتوحات الإسلامية و نشر الدعوة والتصدي للوثنية و قد أسقط المسلمون انفعالاتهم النفسية السيكولوجية في الدعوة و الجهاد و الاستشهاد وهذا ما يبرر عدم اهتمامهم بالإنتاج الفني .

ولعل ما يؤكد هذا قول ابن سلام الجُمحي (ت231هـ) الآتي: "جاء الإسلام، وتشاغلنا عن الشعر العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهتُّ عن الشعر وروايته، فلما كثُر الإسلام، واطمأنتِ العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب مَنْ هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، و ذهب عليهم منه كثيرٌ." (14)

فالكاتب هنا يعزو تراجع الشعر العربي خلال المرحلة الأولى من الإسلام، وضعفه كمّا، بل توقفه المؤقت أيضاً، وضياح نسبة مهمة منه، إلى انشغال العرب بالفتوح، ونشر الدين الجديد خارج حدود جزيّرتهم، ومحاربة أعدائهم من الفُرس والروم، وعدم احتفالهم بتسجيل أشعارهم وتقييدها في كتب، وموت عدد من رُواتها وحُفاظها أو استشهادهم.

و تنقل الدكتورة عائشة عبدالرحمن عن نقاد العصر العباسي، الذين قالوا: "إن الشعر زالت دولته بظهور الإسلام وفقد سلطانه على العرب الذين انصرفوا إلى الدين الجديد والفتوح، ولا نزال نردد اليوم ما قالوه ومنتصرون أن قوما آمنوا بدين كتابه يعجز البيان، قد زهدوا في البيان وانصرفوا عنه، فلم يعد للكذب في دنياهم الجادة المناضلة مكان» (15)

إذا فالدور التاريخي للعقيدة الجديدة من حيث كونها عقيدة انطلقت في البناء من العدم من أجل تأسيس دولة و نظام حضاري غائب عن البيئة التي ظهرت فيها إضافة إلى عالمية هذه الدعوة ما يبرر العمل على نشرها و الدفاع عنها، كل هذا وجه اهتمام المسلمين في صدر الإسلام و شغلهم و أبعدهم عن الاهتمام بالفن.

#### خاتمة:

إذا من خلال ما سبق عرضه من أسباب لتوقف الفن في صدر الإسلام يمكن أن ننتهي إلى عدة نتائج أهمها أن الفن في صدر الإسلام قد تأثر بالحياة العامة للمسلمين و مشاغلهم الجديدة و التحديات التي طرأت عليهم مما حملهم على التوقف .

لكن هذا التوقف توقف مؤقت لأنه ما لبث أن عاد و ازدهر في مرحلة الدولة الأموية و الدولة العباسية بل و عرف قفزة نوعية سواء من ناحية المنهج أو من ناحية الإنتاج الفني .

و لعل أهم ما نصل إليه من خلال هذا البحث هو أن الفن في صدر الإسلام لم يتوقف نتيجة لأنه حرام، رغم أن بعض الفنون الجاهلية كانت تتعارض مع الدين الجديد، كما أنه لم يتوقف كنتيجة لرفض الدين للفن كما هو شائع لدى الكثير من الناس، و إنما توقف نتيجة أسباب أخرى تتعلق في مجملها بالاهتمام فلقد كان للمسلمين في صدر الإسلام توجهات و نزعات نفسية نحو عقائد الدين الجديد شغلتهم عن الاهتمام بالإنتاج الفني. كما أن تأسيس دولة جديدة ذات بعد عالمي تخاطب كافة الناس و ما ينجر عن ذلك من مسؤوليات في الدعوة و الجهاد و البناء ، كل هذا كان أيضا شاغلا رئيسيا للمسلمين في مرحلة صدر الإسلام عن التوجه نحو الفن والإنتاج الجمالي.

#### الهوامش:

- 1- علي أبو ريان ، فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط8، ص 26.
- 2- الزمر، آية 3
- 3- علي أبو ريان ، فلسفة الجمال و نشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق ، ص 27.
- 4- محمد عبدالعزيز الكفراوي، الشعر العربي بين الجمود والتطور، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1 ، ص38.
- 5- سورة الشعراء، آية 244.
- 6- محمد قطب ، منهج الفن الإسلامي ، دار الشروق ، بيروت ط6 ، 1983، ص3 .
- 7- المرجع نفسه، ص 4.
- 8- عبد الرحمان بن خلدون ، المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، 2007، ص 636.
- 9- محمد قطب ، منهج الفن الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 4
- 10- المرجع نفسه ، ص 5-6.
- 11- سعيد حسن منصور، حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام، دار الكتب العلمية ، طبعة 2، بيروت، ص66.
- 12- يحيى الجبوري ، أثر الإسلام في شعر المخضرمين، دار العلم الملايين، بيروت، لبنان، ص 349.
- 13- محمد مصطفى هدارة، الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دار النهضة العربية ، بيروت، ص63.
- 14- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، دار الكتاب العربي، بيروت ، ص22.
- 15- عائشة عبدالرحمن، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، شباب الجامعة للنشر، الإسكندرية، ص62.